الاستشراق في خدمة الاستعمار

أشرنا إلى أن العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي علاقة معقدة وتراكمية، ولطالما وظف الاستشراق في خدمة خطط الغرب الإستراتيجية في التعامل مع العالم الإسلامي منذ رأي الغرب أن ظهور الإسلام وتوحيده لشعوب الشرق يعد مشكلة خطيرة عليه أن يتعامل معها، وكان تحصين المواطن الغربي وإكسابه مناعة فعالة ضد الإسلام والمسلمين عن طريق تسميم عقله وتلويث مشاعره ضد الإسلام والمسلمين أحد هذه الخطط الإستراتيجية التي جند الغرب لها جيشًا جرارًا من المستشرقين. وأنا أقر هنا بأن هذه الخطة قد نجحت في هدفها وأكسبت الإنسان الغربي مناعة فجعلته كما قلنا كارهًا للإسلام خائفًا منه في كثير من الأحوال. ولعل النجاح الذي تحقق قد أغراهم في مواصلة العمل بهذه الإستراتيجية حتى اليوم بعد تحديث أساليبها وتطوير آلياتها وبعد تحالف بعض المستشرقين مع خبراء مراكز البحوث ورجال الإعلام.

وكما وضع كبار المستشرقين أنفسهم في خدمة الكنيسة وأغراضها، وضعوا أنفسهم – إلى جانب ذلك – في خدمة حكوماتهم الاستعمارية، أي أن الاستشراق قد أدى دورًا كبيرًا وأسهم بفاعلية في التهيئة لاستعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. ولما تم للغرب ما أراد، وسيطر على الشرق الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، هب الاستشراق للعمل على إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية، وبث الوهن والارتباك في التفكير، وذلك عن طريق التشكيك في ما بأيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية عليا، حتى نفقد ثقتنا بأنفسنا ونستسلم للهيمنة الغربية المتجبرة.

نجح المستعمرون إذًا في توظيف المؤسسة الاستشراقية لخدمة أغراضهم الاستعمارية وتمكين سلطانهم في بلاد المسلمين أي أن رباطًا غير مقدس قد نشأ بين هاتين المؤسستين: مؤسسة الاستعمار، ومؤسسة الاستشراق. وقد خاض في هذا كثير من المستشرقين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم «وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه» وهذا عمل يشعر إزاءه بعض المستشرقين الموضوعيين بالخجل والعار، يقول المستشرق Stephan Wield: «الأقبح من كل ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في خدمة مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[1].

ولا يفوتنا – في هذا السياق – أن نُذكِّر بأسماء بعض كبار المستشرقين الذين ارتبطوا بالقوى الإمبريالية وسخروا بحوثهم وعلومهم عن الإسلام والمسلمين لخدمة الأغراض الاستعمارية، من بين هؤلاء: K.H.Becker الذي أجرى دراسات لحساب الرايخ الألماني بشأن مستعمراتها في أفريقيا التي ظلت خاضعة له إلى سنة 1918 وتطلب ذلك تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين عام 1887 وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وشعوبها وثقافتها[2].

ولسنا نحن الذين نتهم Becker لكن المستشرق الألماني Ulrich Harman يقول: «كانت الدراسات الاستشراقية الألمانية أقل براءة وصفاء نية، فقد كان Becker – وهو من كبار مستشرقينا– منغمسًا في النشاطات السياسة حتى إنه أصبح في عام 1914 شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين»[3].

(1) رودنسون: مقال في تراث الإسلام لشخت وبوزوورث ج1 ص81، الكويت 1978.
(2) رودي بارت، مرجع سابق ص 31 - 32.
(3) مقال عن الاستشراق في مجلة الباحث، ص145، فبراير 1983.

openkanal.com

وقد عمل المستشرق النمساوي Alfred V. Kramer مستشارًا للإمبراطورية النمساوية وخدمها ثلاثين سنة في مصر ولبنان ومناطق أخرى [1]، وقد كلفت الحكومة الروسية المستشرق Bartold بالقيام ببحوث تخدم المصالح التوسعية الروسية في آسيا الوسطى.

أما المستشرق الهولندي العتيد Christian Snock فدراسة الشرق الإسلامي عنده- حسب تعبير إدوارد سعيد- إما أن تزيد أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السياسة الأوروبية أن تتوسع في آسيا الإسلامية [2]، ودوره في خدمة الاستعمار الهولندي في إندونيسيا وتشجيعه للسلطات الاستعمارية بارتكاب مجازر وحشية فيها فمعلوم لكل من يقرأ تاريخ الحقبة الاستعمارية الهولندية.

أما التحالف بين الاستشراق والاستعمار في فرنسا فهو أمر معلوم منذ حملة نابليون بونابرت العسكرية لاحتلال مصر سنة 1798، وأما الدعم العلمي والثقافي الذي قدمه له المستشرقون فسنشير إلى شيء من ذلك في ما بعد. لكننا نشير هنا إلى المستشرق «دي ساس» الذي خدم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وكان هو الذي قرأ البيان الاستعماري الذي وجه إلى شعب الجزائر. وإلى عهد قريب كان المستشرق الكبير «لوي ماسنيون» مستشارًا للإدارة الاستعمارية الفرنسية للشؤون الإسلامية[3]. ويذكرنا الدكتور ألبرت حوراني أنه كان لماسنيون علاقات سيئة السمعة بسلطات الاستعمار مثل معظم المستشرقين في أيامه.

وإنا نُذكر هنا فقط بالمستشرق الذائع «Bernard Lewis» الذي يستشار كثيرًا من قبل الإدارة الأمريكية ويقدم الدراسات والنصائح لها والتي يبرر لها فيها تدخلاتها من أجل الهيمنة والسيطرة الاستعمارية على العالم العربي والإسلامي وتقسيمه والتمكين لإسرائيل فيه، استمع إليه يقول:

(1) A. Hourani, p.36.
(2) Edward Said, p255.
(3) Edward Said p.221.

obeikandl.com

«يجب أن يكون واضحًا الآن أننا نواجه تيارًا وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تلاحقها. إن هذا الشيء ليس أقل من صراع الحضارات، إنه رد فعل غير عقلاني، لكنه تاريخي لمنافس قديم موجه ضد ميراثنا اليهودي – المسيحي وضد حاضرنا الراهن، وضد امتدادهما العالمي» [1].

كما أنه يزعم للغربيين بإسهاب أن الدين الإسلامي هو العامل الأساس وراء كراهية المسلمين للغرب ولأمريكا وللحضارة والحداثة، ويقلل من أهمية السياسات والأطماع الغربية والأمريكية في العالم الإسلامي وخلق وحماية دولة إسرائيل ومسؤوليتها عن الغضب الإسلامي ضد أمريكا وبريطانيا ومن دار في فلكهما.

ولا أدري ماذا يقول Bernard Lewis اليوم عندما يرى قتل إسرائيل للمدنيين في لبنان وفلسطين وفي قانا الأولى والثانية وغزة بسلاح أمريكي؟!! وكذلك ماذا يقول في استخدام أمريكا وحليفتها بريطانيا كل نفوذهما لمنع صدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار حماية للمدنيين من الهمجية الصهيونية الأمريكية؟! وأكثر من ذلك عندما يسمع تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية بأن ما يجري ما هو إلا آلام المخاض لولادة شرق أوسط جديد، أي أن هذا التدمير الشامل للبشر والحجر في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان يحقق الإستراتيجية الأمريكية في إعادة ترتيب المنطقة لترسيخ الهيمنة الأمريكية الصهيونية عليها.

أما عن خدمة الاستشراق للاستعمار فقد تجلى في الحملة الفرنسية على مصر بصورة تكشف قوة التحالف بين هاتين المؤسستين فقد كان نابليون على وعي تام بأهمية توظيف المستشرقين في خدمة حملته الاستعمارية على مصر، فقد كتب إلى «مونج» المستشرق الفرنسي يقول له: «أنا أعتمد عليك وعلى الدعاية المكتوبة باللغة العربية، وإذا لزم الأمر سوف أعود مع سرية إلى أعلى التيبر لإحضارك»[2] لكي يصطحبه معه على رأس فريق من المستشرقين إلى مصر.

(1) Bernard Lewis، A.Hourani، P.43. جذور السخط الإسلامي، ص30، نشرة بيروت.

(2) وثيقة رقم 2471، باريس، 20/ 4/ 1798 ضمن كتاب نابليون والإسلام» تأليف كريستيان تشيرفيلز، ص52، القاهرة 2002.

قدم المستشرقون إلى نابليون خدمات كبيرة، فقد فهم منهم أن المصريين شعب متدين، ولا بد أن يظهر لهم تقديسه للقرآن وتقديره للرسول واحترامه للعقيدة الإسلامية، وقد أفهموه كذلك كيف يوظف عقيدة القضاء والقدر الإسلامية في خدمة أغراضه الاستعمارية، وأن يقرب إليه الشيوخ والفقهاء والأئمة والعلماء لأنهم زعماء الشعب الحقيقيون. ولكي يكسب العلماء ومن وراءهم عامة الشعب أعلن نابليون أنه سيدخل هو وجيشه الإسلام. ومن يقرأ وثائق نابليون يدرك أن توظيفه للمؤسسة الاستشراقية كان كبيرًا جدًّا وفعالًا [1]. غاية الأمر إذًا أن معارف الاستشراق كانت في خدمة أهداف الاستعمار وكان رجال المؤسستين يسيرون في طريق واحد[2].

كلمة ختامية:

لا ريب أن بعض المستشرقين- في كل بلد أوروبي وفي كل جيل من أجيال الاستشراق، كانوا موضوعيين في دراساتهم، وبحثوا عن الحقيقة بشرف ونزاهة وتفانوا في خدمتها، لكن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الاستشراق بشكل عام قد أساء إلى المواطن الغربي والمسلم في نفس الوقت، كما أساء إلى الحقيقة ذاتها، وإلى العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، لأنه أسهم في خلق حالة عدائية كرّست توتر العلاقة بينهما.

ولا يمنعني ذلك من القول بأن الاستشراق - برغم الروح السلبية العامة التي سيطرت عليه وبرغم خدمته لأغراض الكنيسة والتبشير تارة والاستعمار تارة أخرى - كانت له إنجازات علمية وبحثية مقدّرة ومن ذلك مثلًا:

- تلك الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المستشرقين لتحقيق ونشر بعض الآثار الإسلامية المهمة، ومعاناة قراءة مخطوطاتها مع الصبر الجميل والتحرّي الدقيق في إخراجها في وقت لم يكن بعض علماء المسلمين ليعرفوا عنها أكثر من أسمائها.

(1) انظر رسائل نابليون وبياناته ومنشوراته في المرجع السابق.

(2) ينظر كتابنا: الاستشراق ص64 - 80، القاهرة، 1993.

• كما أن جهود المستشرقين في جمع المخطوطات الإسلامية بالطرق المشروعة وغير المشروعة من شتّى أقطار العالم الإسلامي وحفظها وفهرستها والتعريف بها وتيسير الاستفادة منها غير خافٍ على أحد.

• ومن أبرز أعمال المستشرقين وأكثرها ثمرة ترجمتهم لبعض أمهات المصادر العربية إلى اللغات الأوروبية الحديثة، مما أتاح للغربيين فرصة الاطلاع المباشر على جانب من التراث الإسلامي، وقد كان لهذا العمل الجليل أثر عظيم في فهم بعض العلماء الغربيين الإسلام على حقيقته أو أقرب إلى حقيقته، مما أثمر تحسنًا نسبيًّا لصورة الإسلام في فكر بعض الغربيين.

• ومن آثارهم المهمة وضع المعاجم والقواميس وتيسير اللغة العربية لغير الناطقين باللسان العربي.

• وقد امتلك بعضهم من الشجاعة الأدبية ما جعلهم يتوفرون على نشر كتب ونصوص جدلية كلامية تنتقد دياناتهم ومذاهبهم، بل ويترجمونها إلى بعض لغاتهم ويشيدون بها في بعض الأحيان.

• ولا بد هنا من الإشارة إلى جهود المستشرقين في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وتفصيل آيات القرآن الكريم التي أسس عليها الأستاذ فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

• ونشير هنا إلى أن هذا الكم الهائل من المعلومات والبيانات الذي جمعه المستشرقون وحشدوه في «دائرة المعارف الإسلامية» – ومع تحفظنا على منهجهم في التحليل والتفسير والاستنباط – الذي يجعل الباحث المسلم يعجز عن إنجاز بحثه دون الرجوع إليها غالبًا، كما أن المؤسسات العلمية والبحثية الإسلامية ينبغي أن تشعر بحرج؛ لأنها لم تنتج مثل هذه الموسوعة.

• ومما يستحق الإشارة تلك البحوث التي كتبها بعض المستشرقين وتدخل

في باب «النقد الذاتي للاستشراق»..... هنالك إذًا جوانب مثمرة للاستشراق ليس من همنا هنا إحصاؤها جميعًا.

إن هذه الايجابيات قد تحققت عرضا، إلى جانب ما حققه الاستشراق من نجاح فائق في خلق صورة مشوهة للإسلام والمسلمين، وغرسها في عقل ومشاعر الإنسان الغربي وتوارثتها الأجيال في الغرب حتى اليوم: تلك الصورة النمطية التي جعلت الإنسان الغربي العادي كارهًا للإسلام خائفًا منه[1]، كل ذلك أسهم في استمرار التوتر في العلاقات الغربية الإسلامية.

❊❊❊

(1) **انظر المراجع التالية:**

- الإسلام والغرب، جراهام فوللر وإيان ليسر، ترجمة شوقي جلال، القاهرة 1996.
- حوار الاستشراق، أحمد الشيخ، القاهرة 1999.
- جون اسبوزيتو: التهديد الإسلامي، القاهرة 2002.
- الإسلام في عيون السوسريين، ثابت عيد، ألمانيا 1999.
- حوار المسيحية والإسلام، هانز كونج وجوزيف فان إس، ترجمة الدكتور السيد الشاهد، بيروت 1994.
- الإسلام والغرب، إدوارد سعيد، بيروت 1994.
- Faith and Power. Edward Mortimer. New York 1982.

obeikandl.com